عيسى يفرق ـ عيسى يوحد

شمار: لا يرضى كل إنسان بجملة: «إن الطريق هو الهدف» (مقولة لـ Alois Brandtcttr.

ـ ١ ـ

دعنا نتأمل أحدث الكتب عن «تاريخ الله» لـ Karen Armstrong، وهو يستعرض قصة الإيمان التي ترجع إلى ٢٠٠٠ عام، متناولاً إله إبراهيم وإله آينشتين[1] وجاك ميلز. يميل هذا الكتاب [2] إلى الرأي القائل بوجود تصورات مختلفة عن الإله بقدر وجود اختلاف اليهود والمسيحيين والمسلمين. وإذا كان هذا أمر صورة الإله، فإن الأمر لا يختلف كثيراً بخصوص تعدد صور المسيح؛ ولذلك فمن المحتمل أن يكون عيسى الذي يوحد الناس غير عيسى الذي يفرقهم عن أناس آخرين، فقد ظهرت على مرِّ التاريخ ثلاث صور مختلفة لعيسى.

١ ـ لقد كان عيسى يهودياً مارقاً صدر عنه فعل التجديف الديني حين عَدَّ نفسه بغير حق المسيح المخلص (المفهوم اليهودي).

٢ ـ إن عيسى إله وإنسان في الوقت نفسه (مفهوم التجسيد الذي تتبناه الكنيسة الكاثوليكية والكنائس المسيحية).

٣ ـ إن عيسى نبي ورسول يهودي مصلح (الرؤية الإسلامية).

---

(١) العنوان الأصلي في الإنجليزية هو: «A History of God».

(٢) نقلاً عن الأمريكي. Hanser: ميونيخ ١٩٩٦م.

عاش في الغرب حتى ١٠٠ عام مضت أناس رفضوا بشكل فردي الرؤية المسيحية للمسيح وللدين من أمثال جوته Goethe وغيره، ولكن لم يشكل هؤلاء الأفراد حركة تمرد علنية منظمة معارضة لما تروجه الكنيسة من عقيدة.

لقد بدأت حركة التمرد هذه في الظهور في القرن ١٩ من خلال محاولة إجراء مراجعة نقدية تاريخية للمصادر المكتوبة التى تستمد منها المسيحية تعاليمها، ولقد قام بهذه الحركة لاهوتيون، وكان لها نتائجها المدمرة. وأذكر في هذا الصدد أسماء بعض أستاذة علم اللاهوت من الكاثوليك والبروتستانت مثل Rudolf Bultmann, Hans Campenhausen, Adolf Harnack, Emanuel Hirsch, Hans Kung, Gerd Ludemann, Paul Tillich, Karl Rahner, Adolf Schlatter, Hans Joachim Schoeps, Wilfred Cantwell Smith, Wolfhart Pannenberg.

(لم تشارك الجموع المسيحية في هذه العملية، خاصة أن عملية المراجعة هذه قد حرص القساوسة على حجبها عن الجماهير والتكتم على أمرها).

لقد كان العهد الجديد كنص تاريخي أول ضحايا عملية نقد المصادر هذه. لقد قام Rudolf Bultmann باتباع المنهج التاريخي النقدي المعمول به في الأدب في تحليله وتناوله للنص المقدس. وهكذا قام بتفسير «علاقة رسالة المسيح الأصلية بالشخصية التاريخية لعيسى). ولقد سار في تحليله إلى أقصى مدى، وتوصل إلى استحالة القيام بعملية كتابة

صحيحة لتاريخ عيسى للظروف المحيطة بنشأة الأناجيل. لا يوجد رغم المجهودات المضنية مصدر أساسي، لا يوجد «إنجيل عن عيسى»[(٣)].

لقد توصل البحث إلى نتيجة مفادها أن النصوص السبعة والعشرين نص التى يتضمنها العهد الجديد ليست حقيقية أو واقعية بكل ما تعنيه هذه الكلمة، أي أن يكون كاتبها معروفًا وأن يكون معاصراً لعيسى. ليس لدينا سوى روايات مصدرها الغرباء عن عيسى، ولكن هذه الروايات ليست مروية أو مكتوبة باللغة الأم، أي باللغة الآرامية، وليست صادرة عن شهود عيان. فكيف يتسنى لنا أن نعلم بما كان يريده أو يعنيه إن لم نكن حتى نعلم ماذا قال؟

كما أن مسألة الرواة لا تجدها إلا في سبع رسائل من رسائل بولس، ولكن بولس هذا لم يعاصر عيسى ولم يحدِّثه. لقد توصل البحث إلى أن تاريخ الرسل وقصصهم ما هو إلا نتاج القرن الرابع الميلادي.

ولذلك لم يستطع الكثيرون نفي حقيقة أن نشأة النصوص المسيحية المقدسة لا تعود إلى أسباب تاريخية، بل تعود في حقيقة الأمر إلى مصالح تتعلق بالكنيسة.

وهذا يعنى: أننا نعلم علم اليقين التأثيرات التى أحدثتها الظاهرة عيسى، ولكننا لا نعلم صاحب هذه الظاهرة والتجربة: عيسى. فعيسى ليس مؤسس الدين المسيحي بقدر ما هو موضوع هذا الإيمان والدين، أي عيسى هذا «المجهول العظيم[(٤)]».

---

(٣) إنظر Mack. لقد تمت محاولات لإعادة تكوين مصدر رئيس عن طريق التعامل مع المواضع التي لها المعنى والاتجاه نفسه عند متى ولوقا.

(٤) Deschner ص٨٣ .

يقول Gerd Ludemann: «إنني لا أومن إذن بالكتاب المقدس ككلمة الله لنا، ولكن أؤمن بعيسى الذي يقف خلف نصوص العهد الجديد تخنقه التقاليد الكنسية المتراكمة»[٥].

لقد توصل كثير من الباحثين إلى استحالة إمكانية الحديث عن وحدة العهد الجديد وخلوه من التناقضات وصحته، بغض النظر عن مسألة كتابته. ويعتقد Ludemann أن العهد الجديد هو اختيار الكنيسة للنصوص بهدف تحقيق أغراض بعينها، وهي مجموعة نصوص الجانب الفائز والفريق المنتصر. لقد تم تدوين هذه النصوص بعد أن اجتازت المسيحية بداياتها بزمن، وهي بالتالى ليست كلمة الله بل كلمة الإنسان.

ويعتقد Ludemann أن «التدقيق التاريخى لنشأة العهد الجديد وما يحتويه من مقدسات، يؤدي إلى انهيار أبنية الكنيسة وعلم اللاهوت كما لو كان بناؤهما من ورق»[٦].

ولقد عبر كثير من علماء اللاهوت عن استيائهم البالغ من تزوير بعض الوثائق الكاملة، مثل: رسالة بولس الثانية، وكذلك الرسالة الثانية لبطرس، وكذلك جميع المواضع الخاصة بمسألة الثالوث، ومن ضمن هذه المواضع: رسالة يوحنا الأولى (٥:٧)، أو التعميد «باسم الأب والابن والروح القدس» (متى ٢٨:١٩).

إن نقد العهد الجديد أصبح هماً وشاغلاً عظيماً للباحثين في علم اللاهوت، حتى يتوصلوا إلى ما وراء عام ٣٢٥ ليتمكنوا من إعادة اكتشاف

---

(٥) Ludemann (١٩٩٥) ص ٢٢٦ .

(٦) Ludemann (١٩٩٥) ص ٨ و ٩ و ٢١٩ .

المسيحية الحقيقة ذات الأصول اليهودية. يعتقد John Hick ـ أحد أبرز نقاد هذه الدوجما وتعاليم الكنيسة ـ عن حق أن مجرد مناقشة التجسيد والثالوث قد سلبت الاثنين قدسيتهما ومكانتها حتى صار الاثنان مجرد نظرية(٧). من المحتمل أن ينطبق هذا الأمر على الغرب، أما بالنسبة لكنائس الشرق الأرثوذكسية فإن دوجما وتعاليم الثالثوث استطاعت أن تقف في وجه الزمن بشكل أفضل عما حدث في الغرب. وربما يعود ذلك إلى أن علماء اللاهوت الشرقيين طالما تعاملوا مع مسألة الثالوث كلغز وسر في حد ذاته، بينما وقعت كنائس الغرب ضحية لمحاولتها تفسير هذا الدوجما بشكل عقلاني.

أما أكثر المواقف تطرفًا فقد تبناها بعض علماء اللاهوت المسيحيين من أتباع Paul Tillich مؤكدين رأيه.أن عيسى رمز جميل، جميل لدرجة تجعل من الضروري اختلاقه إن لم يكن قد وجد فعلاً، حتى إن أمر الحقيقة التاريخية لعيسى تصبح غير ذات أهمية، فالإيمان والدين المسيحي ليسا بحاجة إلى تسويغ تاريخي، ولكن ـ كما قال Bultmann ـ إلى: «لقاء روحي مع المسيح». ويتشابه هذا القول مع رأي إكو Umberto Ecco: «بماذا يؤمن من لا إيمان له؟» ووفقًا لذلك، فإن المسيح حتى لو كان مجرد شخص في حكاية مؤلفة فإن هذا التأليف رائع وشديد الجمال ويتسم بسحر وغموض يضاهي فكرة ابن الله الحقيقية.

يُعَدّ كل ما سبق ذكره مجرد خطوات لتجديد ما قام به شلايرمخر Friedrich Schleiermacher من قبل، وهو تحويل الدين إلى فلسفة جمالية.

---

(٧) Hick في Cohn ـ Sherbok الفصل ١ .

تتخلى فلسفة الحياة هذه عن جميع مضامين الإيمان الموضوعية وتلقى بها خلف ظهرها لتصبح «دينًا بلا إله»؛ لأن ديننا ينحصر في إحساس الفرد الداخلي، ويترفع عن الحياة والعالم الحقيقي،ويصبح كما قال جوته Goethe: «مسيحية لاستخدامي الخاص»(٨).

فالدين إما أن يكون دينًا وإما لا يكون! ألا يستطيع المرء إذًا أن يبحث مع كل من Carlos Castenedaو Henri Michaux عما يمكن تسميته بـ «بخبرة الهوة وتجربة معايشتها» وذلك من خلال النباتات المخدرة المثيرة للوعي الديني والتي يكثر الهنود من استخدامها، أي أن يكون الإله المتعرف عليه في حالة غياب الوعي بتأثير المخدر بديلاً عن صورة الآلهة العقلانية التي يؤمن بها من يعتقد بالله كعلة أولى، وينفي مسألة الوحي؟

وبتأثير هذه الخلفية الفكرية، قام الأمريكي Matthew Fox، هذا القسيس المنتمي إلى جماعة الدومنيكان سابقاً، بإجراء تغيير في النموذج، فدعا إلى تغيير نموذج عيسى من عيسى التاريخي إلى عيسى الكوني(٩).

ولقد انزلق في محاولته هذه إلى فلسفة تتسم بمواصفات مرحلة ما بعد الحداثة، ومليئة بالعناصر الغامضة والغنوصية.

ولكننا نتساءل: هل تملك صورة عيسى الكوني مقومات الحياة إذا هي تخلت عن صورة عيسى التاريخي؟ أو ليست صورة عيسى المتعالية

(٨) جوته Goethe في «الشعر والحقيقة» فرانكفورت ١٩٩٢ الجزء ٥ ص ٥٧٥ .
(٩) Fox في Kirste ص ٣٧٤ ـ ٣٧٦ .

على الحقيقة التاريخية وصحتها، هذه الصورة المختلفة، المفتعلة، أو ليست شفرة إضافية للحقيقة غير الملموسة؟

هناك تلاعب لاهوتي أقل تطرفاً، بمقتضاه عناك بالفعل عيسى، كحدث وقع فعلاً «Jesus - Event» كنواة تاريخية للمسيحية، وكل ما عدا ذلك ـ أي ما تبع ذلك ـ من المسيحية ما هو إلا تأملات نظرية.

لقد كان عيسى أكثر من مجرد فكرة جميلة، لقد كان تجليًا مميزاً ووحيًا في الشخص ذاته[١٠]. ويقول Klaus Berger: إن الله الخفي قد أصبح «مرئيًا ومنظورًا» من خلال «ظهور عيسى كإله وشفافية تجلي الله من خلال عيسى ووجوده فيه»؛ لأن عيسى «نفاذ ومتخلل بشكل كامل في الوجود الإلهي، في وجوده هو»[١١].

وبتعبير وصياغة كلمات Michel Lelong: «فإن الله قد تجلى بكامل وجوده في المسيح عيسى، وعرف نفسه فيه وظهر من خلاله»[١٢].

في الحالات الثلاث السابق ذكرها (من خلال المقولات) يفقد عيسى ألوهيته، ولكنه يُرفع إلى مكانة عالية، ويستمر السموّ به إلى أن يكون مضمونًا للتجلى والوحى.

ولكن إذا تساءلنا ماذا إذا لم تكن هذه المقولات تلاعباً بالألفاظ ولكنها توابع لما حدث وقيل وصيغ في إزنك؟ ذلك لأن علماء اللاهوت

(١٠) Cragg ص٥ .

(١١) Klaus Berger: « في البدء كان يوحنا». دار نشر Quell شتو تجارت ١٩٩٧نقلاً عن محادثات من خلال Helmut Lohr في FAZ بتاريخ ٣ / ٦ / ١٩٨٩ .

(١٢) Lelong ص١٦٠ .

الذي يتبنون فكرة «الحدث» لابد وأن يقبلوا أن نعارضهم بالحقيقة التالية: إن بناء أفكار من نقطة لا نستطيع إثباتها تاريخيًا ولكن نَعُدُّها جزافًا حدثاً وقع فعلاً، لهو أمر كفيل بأن يزج بنا في تأملات نظرية غير مجدية.

وهناك نظريات أخرى تتسم بصيغة عقلانية مما يزيد من فرص نجاحها وانتشارها على مستوى كنائس العالم. وهذه النظريات تنسب لواضعها الأستاذ البريطاني John Hick (برمنجهام) المسيحي الأنجليكاني. ولقد توصل Hick إلى أن عيسى إما أن يكون إنساناً على الإطلاق. واختار Hick بشكل مطلق أن يكون عيسى إنساناً فقط.

لقد رأى Hick أن عيسى كان إنسانًا فقط اختاره الله ليحمل رسالته الإلهية، وأنه لم يكن معصوماً من الخطأ أو الخطيئة.

لقد تمثلت رسالته في أن يضيف إلى صورة الإله القاسية الموجودة في العهد القديم، صورة الإله المحب الرحيم، وأن يضفي على وصايا موسى وتعاليمه روحانية، وأن يضفي مسحة أكثر إنسانية على تشددات التلمود. ولقد عَدَّ Hick عميلة تأليه عيسى والتي جاءت زمنياً في وقت لاحق لحياته، وتحويل عيسى إلى الشخص الثاني في مسألة الثالوث الإلهي المقدس «طريقة أسطورية ورمزية للتعبير عن معنى وقيمة عيسى». لقد تحولت صورة عيسى «كابن للرب»، وهي كناية صاغها اليهود الموحدون، إلى نظرية أشبه ما تكون بنظرية الإغريق في تعدد الآلهة وعلاقة الإله الأب بأبنائه[١٣].

---

(١٣) Hick (١٩٧٧) الفصل الأول. ويشاركه Paul Schwarzenau (١٩٨٢) الرأي ذاته ص ١٢٣: «لم تتم تسمية عيسى في المسيحية الأولى والمرحلة التى سبقتها بالرب. بل إنه من المؤكد أن شخصية عيسى التاريخية ما كانت لتسمح أو تقبل بعملية تأليه لشخصه».

ترتكز نظرية Hick التي تدعو إلى إلغاء ونفي فكرة التجسيد إلى حقيقة أن عيسى نفسه لم يتحدث في أي لحظة عن نفسه كإله أو عن ثالوث إلهي. تتمركز رؤية Hick الشاملة على عيسى أكثر منها على الإله، ولكنه لا يجزم إن كان وقوع حدث المسيح هذا فريداً أو أنه سيظل كذلك. فيقول: «إننا لم نعد نتحدث عن نقطة تقاطع بين الإلهي والإنساني، هذا التقاطع الذي حدث في حالة واحدة فقط هي عيسى»[١٤].

ويختلف موقف عالمي اللاهوت الكاثوليكيين RahnerوKung عنHick، فكلاهما لا يرفض الحجج التي تساق لرفض فكرة الثالوث الإلهي متضمنة عيسى كشخص إلهي داخل هذا الثالوث، ولكنهما يجتهدان في إعطاء عيسى مكانة الصدارة في هذا الشأن، والتى تحميه بدورها من أن يكون مجرد رسول مثل باقي الرسل. أي أن كليهما يعترض على فكرة تعدد الآلهة والتي يتضمنها منطق فكرة التجسيد.

ولقد توصل Rahner من خلال إعادة التفكير في تعاليم التجسيد إلى تعريف آدمية وإنسانية عيسى الحقيقية، حين قال: «إن من يقول: إن عيسى هو الإنسان الذي يعيش حالة تسليم الذات لله بشكلها المطلق، يمكنه بهذا القول أن يعبر عن حقيقة جوهر المسيح في عمقها بشكل صحيح».

ويعتقد Rahner أن «التجسيد» الإلهي في الحياة الإنسانية إنما هو احتمال عام، ويكون عيسى بهذا المثال الكامل والأوحد لمثل هذا الإلهام.

---

(١٤) John Hick: «التعدد والتنوع الديني والحق في المطلق» في Rirsteص١٤٦ .

أما لغة Hans Kung فتبدو أقل خفوتاً ورونقًا، ولكنها تظل حسب رأيي - أقل من مطالبة Ludemann في أن يكون للحقيقة الصدارة في الخلاف الدائر بين الكنيسة والحقيقة. فـ Kung يعترف من ناحية برب إبراهيم ورب عيسى، وأن عيسى دعا - بوصفه مختاراً من هذا الرب - له باسمه، أي أن عيسى إنسان مميز فريد «اختاره الله وأعطاه قوة مطلقة». أي أن التثليث يتضاءل هنا إلى حد «وحي الله في المسيح من خلال الروح» [(١٥)] ولكن من ناحية أخرى يكتب Kung أن هذا الإنسان الحقيقي عيسى الناصري، وحي الله الحقيقي، هو - في لغة أقرب ما تكون للغة الكتاب المقدس - هو المسيح، المخلص، صورته وابنه. وتجتمع في المسيح عيسى هذا روح الله، سلطته وقوته. ويتوحد المسيح الإله مع الإنسان، أي الشخصية التاريخية لعيسى الناصري [(١٦)]. وبهذا يثبت Kung أنه لا يزال الابن الوفي المطيع والتابع لكنيسته وتعاليمها.

ولقد تسلطت أضواء على عنصري «الصلب» و«القيامة»، واكتسبا رؤية جديدة، حيث نالت الرؤية القرآنية مساندة من جانب التيار النقدي في علم اللاهوت والذي أثبت أن عملية المحاكمة وتوقيع العقوبة قد تما في يوم الجمعة نفسه قبل عيد فصح اليهود مباشرة، وأن الكلمات التي تنسب للمسيح وهو على الصليب ما هي إلا كلمات ملفقة لا أساس لها من الصحة، وأنها رواية مؤلفة في زمن لاحق لهذا الحدث.

(١٥) J. van Ess. / Rung .

(١٦) Kung (١٩٨٨) ص ٣٢، ٤٣ ـ ٤٥، ٤٩ ـ ٥٠، ٥٤ .

أما الاعتقاد بقيامة المسيح والتي أصبحت ظاهرة تؤمن بها جماعة المسيحيين بأسرها، وإن كانت في الأصل رؤية فرد واحد، فيراها Lude-mann «رد فعل مسلسلاً»(١٧) لا مثيل له.

أعتقد أن هذا العرض الموجز يكفي دليلاً على الأزمة العميقة التي تعيشها علوم اللاهوت المسيحية والمسيحية ذاتها وتعاليمها في العالم المسيحي، والتي يعد Eugen Drewermann أخيراً وليس آخراً ـ أحد مؤشراتها البارزة. ويصور القرآن هذا الموقف بدقة شديدة في سورة الشورى الآية ١٤: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

ولكن من غير المتوقع أن تؤدي هذه الأزمة (حتى الآن) إلى أن تسرع حشود المسيحيين المحبطة إلى الدخول في دين الله كما تبشر سورة النصر بذلك الآية ٢: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾، ولكن بالأحرى ستدفع هذه الأزمة بالكنيسة إلى فنائها وتعجل بالقضاء عليها وبنهاية المسيحية المرتبطة بالكنيسة، وسيؤدي ذلك إلى زيادة شعور الجماهير بالاغتراب عن الدين عامة، وتزيد من رغبة الإنسان الفرد بانتقاء ما يريد ويناسبه من المعروض في سوق الديانات والمعتقدات والتي هي أشبه بالسوبر ماركت.

ولقد ذكر القرآن هذا التطور في سورة الجاثية الآية ٢٣ ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ...﴾.

---

(١٧) Ludemann (١٩٩٥) ص ٢٢٧ .

ـ ٢ ـ

إن هذا التطور السابق ذكره والذي تشهده علوم اللاهوت المسيحي وتعاليم المسيحية، لا يصل إلى مدارك الجموع المؤمنة التى تذهب أيام الآحاد إلى الكنيسة؛ لأن المسيحية تشهد حالة من «الانفصال العميق بين التقوى والورع وبين العلم، أشبه ما تكون بحالة الشيزوفرانيا»[(١٨)].

فبالرغم من الزلزال الذي ضرب علم اللاهوت لا يمكن إلا أن نتوقع استمرار الجموع البيسطة من الكاثوليك في بولندا، كرواتيا وأيرلندا وأسبانيا في المشاركة في المواكب التي تقام إجلالاً وتقديساً «لأم الإله».

يتشابه هذا التطور بما أحدثه كل من..Werne,Einstein,Max Planck Niels Bohr,Heisenbergمن تحول في بدايات القرن من الفيزياء النيوتنية (نسبة إلى نيوتن) إلى الفيزياء الجديدة، فلقد أدركت العامة نتائج نظريات هؤلاء بعد نصف قرن. في جميع الأحوال فإن مصداقية الكنيسة أو عدم مصداقيتها يتوقف اليوم على موقفها من علماء اللاهوت الذين يتبعون منهجًا تاريخياً نقدياً، وما توصلوا إليه من نتائج، وعلى إذا ما أفرجت الكنيسة عن هذه النتائج أو اختارت طيها في بئر الكتمان.

وتفتح عملية رفع هالة القدسية عن عيسى وتخليصه من المسحة الأسطورية والملحمية الباب واسعًا أمام تصالح المسيحية مع غيرها من الديانات والمعتقدات غير المسيحية، وبخاصة الإسلام.

---

(١٨) Ludemann (١٩٩٤) ص ٢٠٩ ـ ٢١١ . Ludemann (١٩٩٥) ص٨ .

إن الإمكانات التى تتيحها عملية التصحيح هذه مذهلة، لأنه إذا ما توطدت فكرة أن عيسى «مجرد» رسول الله ـ وهي مكانة عظيمة تحظى لدى المسلمين بتقدير واحترام بالغين ـ فإن هذا كفيل برأب الصدع بين المسيحيين والمسلمين، ذلك الذي أحدثه المجمع الكنسي في إزنك. إن الأمر لا يتعلق بأن يشعر المسلمون بأنهم على حق عندما تتطور المسيحية لتدرك أن المسيحية المذكورة في القرآن هي الأصل وهي الصحيحة، ولكن إذا حدث هذا فسيكون الإسلام قد أدى رسالته في إصلاح المسيحية وتخليصها مما علق بها من شواب وتلفيقات، وعاد بها إلى أصلها. وبهذا يكتسب الحوار العالمي فرصاً جديدة ليس على المستوى الإنساني فحسب، بل كذلك على مستوى النظريات؛ لأنه في هذه الحالة لن تصبح مسألة الطبيعة الإلهية لعيسى أحد المحرمات التى لا تمس ولا تناقش كما ذكر Hans Kung. وبهذا سيكون تمسك المسلمين بالمسيحية التي وردت في القرآن لمدة ١٤٠٠ عام قمري عملاً آتى ثماره واستحق هذا العناء والمثابرة.

لقد أحدث المنشور البابوى الذي أتى ذكره في الفصل السابق تغيراً ملموساً.

فلم يعد الحديث قائماً عن هلاك كل من هو خارج الكنيسة، لقد تخلت الكنيسة عن موقفها هذا (لا نجاة خارج الكنيسة) الذيب يعود إلى قرون طويلة. (أما في المجال العلماني فيتحول هذا الموقف في إطار العولمة لصياغة أخرى «لا حضارة خارج الغرب!»).

يتجلى هذا الموقف في أكثر أشكاله تطرفًا فيما ورد في المنشور البابوى لعام ١٩٧٩ في الفقرة ١٤ والتي جاء فيها «إن الإنسان ـ كل إنسان بلا استثناء ـ قد نجا من خلال المسيح، وكل إنسان مرتبط بالمسيح بشكل أو بآخر حتى لو لم يعلم الإنسان هذا».

إن المسلمين وفق هذا القول وبتعبير Rahner هم مسيحيون بدون أن يعرفوا!.

إن المسلمين «ينتقمون» لأنفسهم «فكريًا» عندما يَعُدُّون عيسى (مثله مثل بقية الرسل) كما ورد في القرآن مسلمًا بالمعنى الأصلي للكلمة، أي أنه إنسان يسلم نفسه كاملاً لله. فلقد ورد في سورة آل عمران الآية ٦٧: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. وكذلك ورد في سورة البقرة الآية ١٣٦: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. ويتشابه هذا، بل يكاد يتطابق مع ما ورد في الآية ٨٤ من سورة آل عمران.

أما مقولة إن المسلمين مسيحيون (بدون أن يعرفوا)، فهي ليست عارية من الصحة تمامًا: إن المسلمين من أكثر الناس احترامًا وإجلالاً ودفاعاً عن مكانة المسيح عيسى بن مريم وأمه اللذين اصطفاهما الله. وتتأكد هذه الحقيقة عندما يتابع المسلم بدهشة بالغة واستنكار واضح ما يتعرض له كل منهما ـ أي عيسى ومريم العذراء ـ من تقليل لمكانتهما

واحترامهما على يد بعض علماء اللاهوت المسيحيين أمثال We Dorothee Solle , Rank - Heinemann عندما يتعرضون لشخص المسيح على أنه شكل من أشكال العاملين في المجال الاجتماعى العام، ولأمه بصفتها أم غير متزوجة.

إن بعض علماء اللاهوت أمثال William Watt , Paul Schwarzenauومرة أخرى John Hick يتعاملون مع الموقف الحالي ونتائجه بشكل صريح. إن هؤلاء يرون أن جميع المحاولات التي تستهدف الحفاظ على صدارة المسيحية ـ خاصة بعد تنقية صورة عيسى من جميع العناصر الأسطورية والملحمية، وبالتالي المسيحية ـ ليس لها أدنى أمل في تحقيق النجاح.

يعتقد Schwarzenau الذي يتحدث عن بداية زمن ما بعد المسيحية، وعن ظهور عناصر دين عالمي، أن عهد المبشرين قد ولى، وأن ساعة عودة البشر لدين الله الواحد قد حانت[١٩].

يؤمن Schwarzenau مثله مثل [٢٠] Hick , Watt بأن الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام هي في حقيقتها وأصولها ذات مكانة متساوية، كما تتساوى في حقيقتها. ويرى Schwarzenau أن القرآن بمثابة وحي ورسالة إلهية ـ دينية كونية تصلح للعالم كله، وتتضمن حقيقة رواية عيسى الأصلية. وبالتالي يرى Schwarzenau أن القرآن يصلح لأن يكون إضافة مفسرة للعهد الجديد.

(١٩) Schwarzenauنقلاً عن Kirateص ٤٧٨ .

(٢٠) Watt ص٤٣ .

يتوقع Schwarzenau للمستقبل أن يتطور الأمر من «توالي موسى وبعده عيسى وبعدهما محمد إلى حالة معية» (أي أن يكونوا معًا).

«سنكون في أواخر الأيام كلنا معًا داخل الإسلام العالمي»[٢١].

لا يخفي Schwarzenau مثله مثل Hick اعتقاده أن الديانات كافة رغم مطالبها وأهدافها العالمية وتوجهها للبشر كافة، فهي مرتبطة بالنسيج الثقافي لها، وبالتالي لا تكاد تصلح لتحقيق مثل هذه العالمية التي تصبو إليه. يسمى Hick هذا الأمر «الإثنية الدينية»، والتي تدفع بالمؤمنين والتابعين للديانات المختلفة إلى المحاولة التي لا طائل منه لإثبات التفوق الأخلاقي والفكري لديانتهم على الديانات الأخرى: مع أن الفضيلة والرذيلة موزعتان بشكل قد يكون متساوياً على العالم كافة.

إن الديانات كلها تكاد تكون لها الأهداف نفسها، وهى عدم تركيز حياة البشر على الدنيا فقط، بل السمو بها عن طريق تركيزها وتمركزها ـ أي حياة البشر ـ على الله ووجوده. إن رؤية الديانات المختلفة للحقيقة النهائية لا تعني أن إحداها على حق والأخرى على باطل. لكن على العكس فإن كل الديانات ـ وفق اقتناع Hick ـ تشارك في نصيب متساوي من الحقيقة الإلهية.

وهذا الموقف يوضحه أكثر ما يوضحه الضوء الذي ينكسر في مناخ الأرض إلى ألوان قوس قزح. وهناك تشبيه آخر لاختلاف الديانات مع

---

(٢١) Schwarzenau (١٩٨٢) ص٩، ٢٢، ١١٧، ١٢٣ ـ ١٢٤، ١٢٦.

اتفاقها في الهدف النهائي، وهي أن الطرق المختلفة تؤدي إلى قمة الجبل نفسه[٢٢].

وانطلاقاً من هذه الخلفية التي تتسم «بتمدد النظريات اللاهوتية للديانات» يطالب Hick أتباع الديانات والمذاهب إلى نبذ فكرة التعصب لدينهم ومذهبهم واعتباره طريق النجاة الأوحد والمطلق. ويناشد Hick المسيحيين أن يخطوا الخطوة الحاسمة ويعترفوا بأنه بالإضافة إلى عيسى هناك مخلصون آخرون وأن هناك رسلاً وأنبياء أوحى إليهم غيره، وأنهم كذلك أصحاب رسالات سماوية[٢٣].

لا بد وأن يلحظ المرء ارتباط تأسيس هذا التعدد الديني الليبرالي وقبوله بالفيزياء الجديدة من حيث تاريخ الفكر. فعلوم الطبيعة الجديدة التي تقبل بنسبية غير دقيقة تشبه تقبل Hick للنسبية في تقيمه للأديان: فالذي يبدو متناقضاً قد يكون كله صحيحاً. ويوافق Hick ـ كما توافق علوم الطبيعة الحديثة ـ على ضرورة التفرقة بين الحقيقي والطريقة التي يفهم بها. ويميل Hick إلى رفض أي تقييم نوعي، إنه يتقبل بطبيعة الأمر أن يتحلى المرء بانحياز إيجابي أو حكم مسبق إيجابي لدينه، ولكنه يرفض أن يكون المرء سيء النية تجاه ديانات الآخرين.

إن هذا لا يتشابه مع علوم الطبيعة الحديثة فقط، ولكن مع أحدث صيحات الفكر واتجاهاته في بدايات الألفية الثالثة.

(٢٢) Hick (١٩٩٥) ص١٠، Hick في Kieste . ص ١١٤ ـ ١١٥ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ـ ١٤٩ . Hick (١٩٨٨).

(٢٣) Baumann ص٧ .

لقد امتد ضياع المعايير، وثقافة الصدفة، ونظريات الفوضى، ليس إلى علوم اللاهوت فحسب، بل تجدها كذلك في فنون الرقص والموسيقى الحديثة لـ John Cage والذي يختار جميع الأنغام التي تروق له دون معيار فني. يالها من تعددية!

أولا تذكرنا الفلسفة الجمالية المعتمدة على الصدفة هذه بما سبق ذكره من الخيارات اللاهوتية؟

الملمح المميز لما بعد الحداثة في الفلسفة، والتاريخ، وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا هو نبذ المنظومات الكبيرة والنظريات الشاملة العامة. فبدلاً من الشرح، يحتل الوصف مكان الصدارة، ويتم تفكيك علاقات فكرية إلى مجرد طرق محادثه. فالعلم يتم «تدويره» وتحريكه كالمال في اتجاه ما بعد الحداثة.

فالنص آخر الأمر هو نتاج ما يفعله القارئ به، أي القارئ مؤلفًا!

وكل شيء له الحق في أن يتمتع بالقدر نفسه من الحماية: كل ما هو صغير، كل ما هو غريب، كل ما تهدده الأغلبية، النساء، الأطفال، مدمنو المخدرات، الشواذ جنسياً، النحل الدينية والحيوانات.

ويتمثل رد فعل ما بعد الحداثة على حالة الفقر الفكري والروحي للحداثة في مظاهر العصر الجديد، مثل: كشف الغيب، علوم إعادة التجسيم، النحل المسيحية الجديدة الملفقة، الدين المدني، نظريات البيئ وأساطير الطبيعة، وغيرها الكثير مما نجده في السوبر، مارك الديني المعاصر.

ويستشعر الناس اليوم الخوف من كل ما يتسم بالنظام والقواعد، ففي عصر ما بعد الحداثة يبتعد الناس عن «الموضوعية» كهدف وإمكانية، لدرجة أن الكثيرين ينفون عن العلوم الطبيعية مسألة المعيارية.

فالجوهر الأساسي للأسئلة الفلسفية القديمة مثل: ماذا أستطيع أن أعرف؟ ماذا علي أن أفعل ؟ ما الذي أستطيع أن آمله؟ كل هذه الأسئلة تطرحها ما بعد الحداثة كتساؤلات، ولكنها لا تبغي من ورائها إجابات. ولكن إذا أصبحت كل مقولة مجرد مادة تأملية، فسيصبح عن قريب من الفضائل ألا يكون للمرء رأي ثابت (no view) وكذلك لا يحدد لنفسه هدفاً (no goal)، وستصبح كل حماسة دينية وانتماء عقائدي تطرفًا. هذه النسبية في القيم ستؤدي بطبيعة الحال إلى عدم اتخاذ مواقف، وليس للتسامح وتقبل الآخر (رومان هرتزوج)[٢٤]. والنقيض هو الصحيح: تقبل الآخر والحق في وجود أشياء مطلقة متلازمان (Peter Steinacker).

لقد تبين للناس أن «الحلول النهائية» تكمن في منطق الدولة الحديثة. لقد عبر Zygmunt Baumann عن اعتقاده بأن ما يهدد الوجود الإنساني ككائن أخلاقي ليس الشهوات ولا الأفكار القديمة ولا الاعتقاد بالخرافات، ولكن ما يهدده حقاً هو العقل، الحضارة والعلم[٢٥]. ويتماشى مع وجهة النظر هذه ما قام به Jurgen Habemas في إحدى كتاباته بفصل الحق عن الأخلاق، نابذاً بذلك الأسس التي ارتكزت عليها مرحلة التنوير.

(٢٤) منح جائزة السلام الألمانية للأستاذة الدكتورة Schimmel فرانكفورت ١٥ / ١٠ / ١٩٩٥ ص ٩ .
(٢٥) Baumann .

يؤدي الاستغناء عن ضرورة وجود فكرة «الحقيقة» إلى اتجاه نسبي ذي طبيعة عدميه، تؤدي إلى أن يختار المرء أي شيء يريده بلا تجديد لموقف ثابت[٢٦].

لكن مرحلة ما بعد الحداثة تتمسك بالإنجازات الرئيسة للحداثة، وهي: فصل الدولة عن الكنيسة، التعدد الفكري، رؤية تاريخية خطية مستقيمة. ميتا فيزيقيا ملحدة، رسالة التبشير بالإنسان محور الكون.

ـ ٤ ـ

لا يؤدي السؤال عما إذا كان عيسى يوحد البشر أم يفرقهم دوراً مهماً في مشهد مرحلة ما بعد الحداثة، حيث لا تولي الأخيرة أهمية لمثل هذه التساؤلات. ولكن من المهم جداً للمسلمين أن يعلموا إلى أين تريد هذه المرحلة تصل بهم؟ فمثلاً ما هدف John Hick بالنسبة للمسلمين؟ إلى أين يريد أن يتوجه بهم؟

تُعدّ الرؤية الإسلامية مرحلة ما بعد الحداثة هذه إحدى النتائج المتأخرة للحداثة والتي تتحمل مسؤولية انتشار الإلحاد، والعلمانية، وفقدان القيم والمعايير، وفقدان الأشياء لمعانيها ومضامينها. إنها رد فعل مأزوم على عالم مرعب لا يمكن ـ على أقل تقدير منذ الحرب العالمية الثانية ـ بأي حال السيطرة عليه، لا من خلال مثل وقيم التنوير ولا حتى بقوة ردع السلاح[٢٧].

---

(٢٦) العطاس (١٩٩٦) ص ٥٠٨ .

(٢٧) The Muslims World Book Review . Mansoor
لعام ٧ رقم ٢ عام ١٩٨٧ ص٣ . لعام ١٤ رقم ٣ عام ١٩٩٤ ص٩ .

يعتقد Emanuel Kellermann أن الإسلام يكتسب أهميته وقيمته المطلقة مقارنة بالأديان الأخرى، فهو يقدم أفضل ما يمكن للدين أن يقدمه [(٢٨)].

ولذلك لا ينبغي لأحد أن تصيبه الدهشة إذا ما رفض العالم الإسلامي أن يشارك في مسألة اللامبالاة بالمعتقدات؛ لأن المخاطر الناجمة عن هذا لا يغفلها العقل، إن هذا الأمر بمثابة كابوس سيؤدي بالعالم إلى طريق مسدود، سيعمل على أن تفقد الأشياء معانيها وقيمتها، سيفقد العالم الأمان، التراث والتقوى. لقد عبر أدريه مارلو عام ١٩٦٨ عن هذا حين قال: «إنني أؤمن بأن حضارة الماكينات هذه هي أولى الحضارات بلا قيمة عليا. إن علينا أن ننتظر لترى هل يمكن لحضارة أن تكون حضارة تطرح مجرد تساؤلات فقط، أو أن تكون حضارة الآن فقط. وهل من الممكن أن تؤسس قيمها على شيء آخر غير الدين لفترة طويلة؟».

لا يعتقد المسلمون أن أزمة القيم والمعانى هذه يمكن التغلب عليها من خلال استدعاء القيم الإنسانية والتوصل إلى اقتناعات مشتركة بين المسيحيين واليهود والمسلمين، والليبراليين، والماركسيين والملحدين، طالما ظل الإنسان هو معيار ومقياس الأشياء كافة، وهو وحده صاحب الحقوق كافة.

إن التمسك الأعمى بنموذج للتقدم يستند على الفرد الحر لن يؤدي إلا إلى مزيد من الانتكاسات؛ لذلك فإن قليلاً جداً من المسلمين يولون أهمية لمشروع Hans Kung بإقامة «علم أخلاق عالمي».

(٢٨) Kellermann: الإسلام الطبعة الثانية: بازل ١٩٥٦ ص ٢٧٧ .

لقد كان لكل هذا أثره الواضح في جلسات برلمانات ديانات العالم المنعقدة في جنوب إفريقيا في الفترة من ١ ـ ٨ ديسمبر عام ١٩٩٩، حيث ناشد الحاضرون المؤسسات الرائدة في العالم الحفاظ على الأخلاق. ومن أمثلة النداءات: «لا يصدر عنك فعل لا أخلاقي»، «احترم الحياة»، «إننا نهدف لإقامة عالم تساند فيه التكنولوجيا آدميتنا وتحميها».

كل هذه المقولات الجميلة التى صيفت بصيغة الأمر ولم تتخط القاعدة الذهبية القديمة «أن تعامل الآخرين كما تحب أن تعامل، وأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك»(٢٩).

هذه هي الحصيلة الأخيرة لما يتبقى، إذا ما عَدَدْنا أن الأخلاق هي التي ستبقى بعد زوال الديانات.

يقول Hans Joachim Fischer عن حق: «إن الأخلاق الجديدة لن تستطيع أن تركز على مياه نظيفة في بحر الشمال أو جزر خالية من الأسلحة النووية، ستفقد مصداقيتها إذا ما أعلنت عن نفسها أنها أخلاق بلا هدف للتفرقة بين الخير والشر، الحق والباطل»(٣٠).

لذلك فإنني لا آمل خيرًا في نوايا برلمانات الديانات باستغلال قدوم الألفية الجديدة وإقامة حدث عالمي في أيسلندا. وموقفي هذا يسري كذلك على نية Hans Kung المتمثلة في كتابة «علم لاهوت منظم لديانات العالم»(٣١).

(٢٩) تلك القاعدة الذهبية يقابلها حديث الرسول: «أحب لأخيك ما تحب لنفسك» (مسلم رقم ٧٢ ـ النووي رقم ٢٣٦ ، رسول رقم ١٢).

(٣٠) Fischer: أخلاق بلا أخلاق FAZ ١٦ / ١١ / ١٩٩٥ .

(٣١) Kung: Die Welt ٦ / ٣ / ١٩٨٩ ص ١٣ .

إن الإسلام ـ على النقيض من آراء John Hick التي تتسم بملامح مرحلة ما بعد الحداثة ـ ليس على استعداد للتخلي عن قيمه «الحقيقة» بالرغم من أن على المسلمين أن يتفقوا مع ما قاله الرئيس الإيراني د. محمد خاتمي من أن الدين، وتصورنا عن الدين وفهمنا له، لا يتطابقان بالضرورة (٣٢). يضرب الإسلام تشبيهاً مجازياً مقابلاً للضوء الإلهي الذي ينكسر في ألوان قوس قزح، وهو تشبيه الذهب بمعاييره المختلفة وصولاً إلى أنقى درجاته:٢٤ . ورسالة الإسلام، التوحيد الخالص، أشبه من يكون بالذهب في أقصى درجات نقائه وخلوه من المعادن الأخرى أي ذهب عيار ٢٤ . ليس هناك درجة أعلى من هذا التوحيد يمكن للمرء أن يتخيلها، وهذه الدرجة غير مرتبطة بثقافة بعينها.

لا يعني هذا أن الإسلام ليس على استعداد لتقبل الديانات الأخرى والتسامح في وجودها، خاصة أن هذا التعدد والتنوع في الديانات مشيئة الله وشأن من شؤونه في خلقه. كما ورد في الآية ٤٨ من سورة المائدة. ويتضمن القرآن مبدأ يصلح ليحكم العالم، وهو الوارد في الآية ٦٧ من سورة الحج:﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ ويقول الله تعالى في آخر آيات هذه السورة (٧٨): ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

(٣٢) خاتمي: لا تحتكر أصحاب ديانة وحدها كل الحقيقة. FAZ ٢٦ / ٩ / ١٩٩٨ ص ٣٥ .

كما ورد في الآية ١٩ من سورة آل عمران والآية ٢٨ من سورة الفتح.

يتفق الإسلام مع فكر ما بعد الحداثة في وجود تناقض لا مجال للتغلب عليه بين التطور التاريخي والقيم الصالحة لكل زمان، فما بعد الحداثة ترفض فكرة وجود قيم غير مرتبطة بزمن محدد، أي قيم تعلو فوق الزمن لتصلح لكل زمان، أما الإسلام فيرى أن التاريخ ما هو إلا حقب فانية ـ مثل الحداثة وما بعد الحداثة ـ لكن الباقي والمستمر تعاليم الله؛ لذلك أعتقد أن علينا أن نتعامل مع التنوير بشكل مغاير عندما نتحدث عن الإسلام.

فلم يأت التنوير بالضوء ليخترق ظلمات التقاليد الإسلامية ونصوصها من قرآن وسنة، بل إن هذه القيم والقواعد من قرآن وسنة هي التي انبعث منها النور والضياء.

إن المسلمين يتعاملون بشك وريبة مع ما بعد الحداثة؛ لأن تسامحها وتقبلها لكل شيء ينتهي إذا ما كان هذا الأمر متصلاً بالإسلام.

فالمسلمون لا يتمتعون بأي مزية من مزايا الأقليات في أوروبا الغربية.

فالحداثة وما بعد الحداثة تتعامل مع فوبيا الإسلام وحالة الذعر المرضي منه بالشكل والأسلوب نفسيهما، والمثال الواضح على ذلك هو علم اجتماع الديانات.

فإذا كان الآباء والمؤسسون من أمثال Rarl Rarl , Max Weber , Emil Durckheim, Georg Simmel Marx قد انطلقوا في تصوراتهم عن اختفاء

منظم للإسلام، فإن خلفاءهم اليوم ممن يروجون لما بعد الحداثة لا يختلفون عنهم، حيث لا يظهرون أي تفاهم أو تعاطف أو ود للإسلام. إنهم لا يروجون لشعارات مثل «كنيسة واحدة، إله واحد وملك واحد» ولكنهم يرفعون شعارات «ثقافة واحدة، تكنلوجيا واحدة، نظام عالمي واحد». مجمل القول: أينما يول المسلمون وجوههم فإن شبح العولمة يتراءى لهم بوضوح.

۞ ۞ ۞